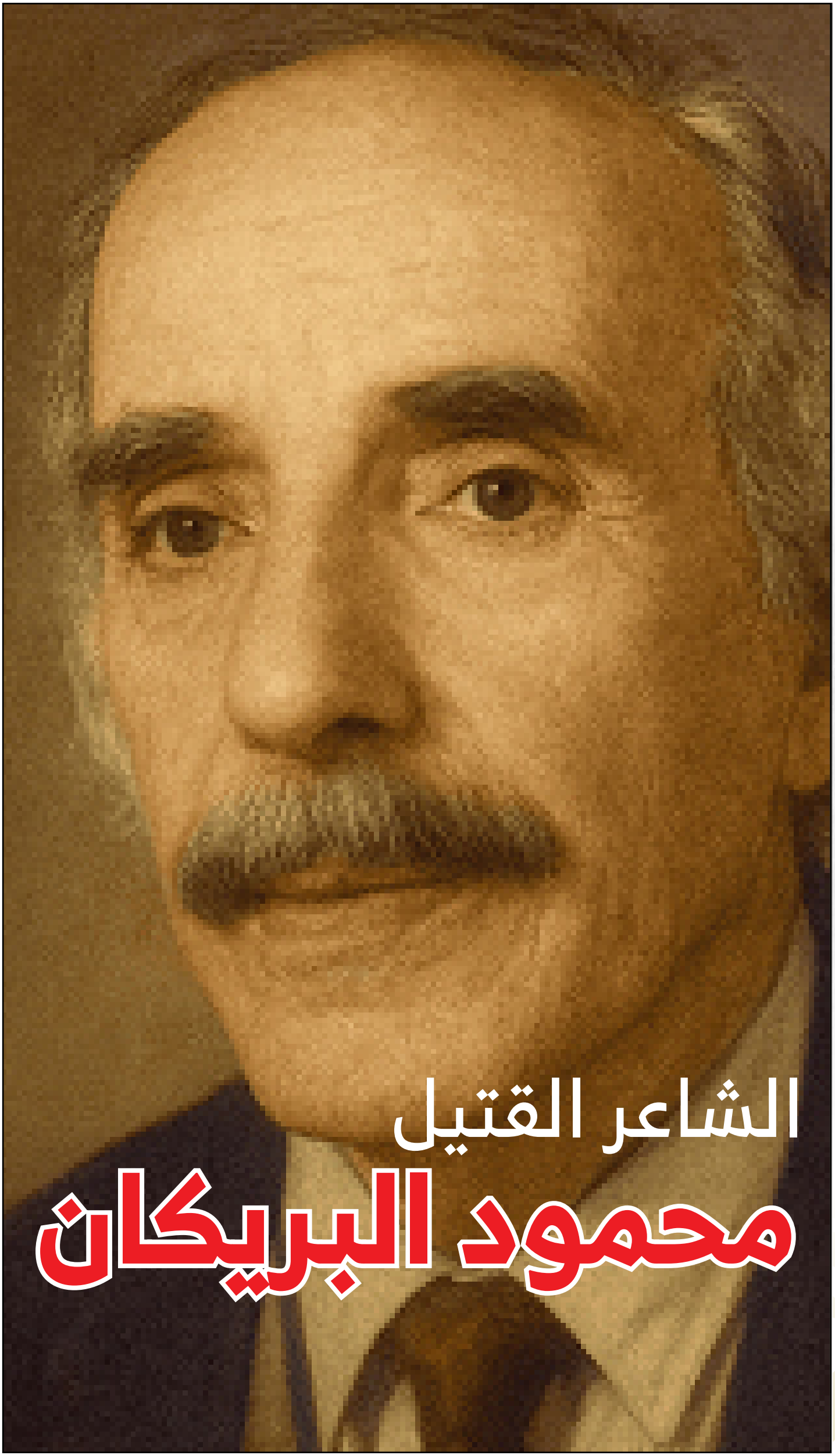

الشاعر القتيل
محمود البريكان

مراجعات

من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة

المدى

للإعلام والثقافة والفنون

www.almadasupplements.com

"22عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

رئيس مجلس الادارة
رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (6013) السنة الثالثة والعشرون
الخميس (23) تشرين الأول 2025

محمود البريكان الشاعر القتيل "رائد" منسيّ

عبده وازن

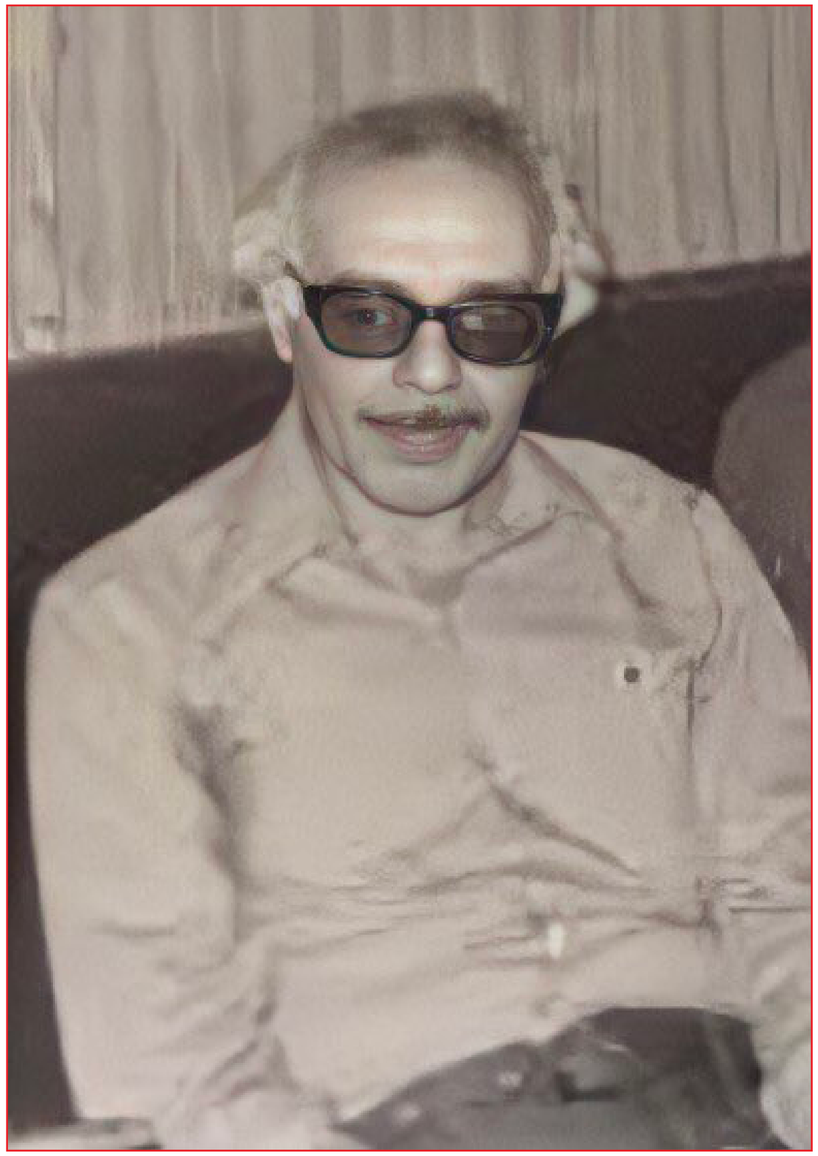

كان قدر الشاعر محمود البريكان أن يُقتل حتى يذيع اسمه ويخرج من عزلته الطويلة، ولكن الى عزلة أشد هولا هي عزلة الموت. هذا الشاعر الذي مات طعناً بخنجر احد لصوص بغداد كان ينتمي الى جيل بدر شاكر السياب وعبدالوهاب البياتي وبلند الحيدري مع انه يصغرهم نحو خمس سنوات ويكبر سعدي يوسف ويوسف الصائغ بضع سنوات. لكنّ انتماءه الى جيل الرواد زمنيا وشعرياً لم يعن يوماً – على الأقل عربياً – انه واحد من كبار هذا الجيل وربما أكبر من البياتي والحيدري ناهيك ببعض الرواد العرب الذين احتلوا مرتبة الصدارة. فمزاجه الشعري ومسلكه دفعاه الى الانسحاب من المعترك الحداثي المتجلي حينذاك في ثورة التفعيلة والشعر "الحر". علاوة على أنفقه من الظهور و"نفوره من النشر" بحسب عبارة السيّاب الذي وصفه قبل عقود وتحديداً في العام ١٩٥٧ بـ"الشاعر العظيم" ولكن "المغمور". وأضاف قائلاً: "سأحاول بذل كل جهد لاخراجه من صمته ليتبوّأ المكانة اللائقة به". هكذا انسحب البريكان من السجال الحداثي أو "التفعيلي" بالأحرى وراح يصنع شعريته الحديثة شبه وحيد، بعيداً من أي همّ جماعي أو تيار حزبي أو هاجس "بطولي". رفض طيلة حياته أن ينشر دواوين وكتباً مكتفياً ببعض الاطلالات الصحافية ومعظمها داخل العراق ولا سيما في المراحل الأخيرة. وقيل ان ديوانه صدر في بغداد ولكن لم يشر اليه أحد من الذين جمعوا مختارات من شعره. وقد يتضح مثل هذا الأمر عندما يتصدى أحدهم الى كتابة سيرته، ان كان له من سيرة. فهذا الشاعر "الزاهد" والمنسحب تكاد قصائده تختصر سيرته الشبيهة بسيرة شاعر "غريب" (كما يصف نفسه مراراً) عبر من هنا من دون أن يترك إلا أثراً واحداً هو الأثر الشعري.

عندما قتل محمود البريكان مرّ خبر مقتله البشع من غير اهتمام لافت. فما كُتب عنه كان قليلاً جداً ومعظم الذين كتبوا هم من العراقيين الذين عرفوه وقرأوا له. كان اسمه شبه مجهول وخصوصاً في ذاكرة الجيل الجديد، وشعره شبه مفقود ومبعثر ووقوفاً على "مختارات" يتيمة (عربيا) كان وضعها الشاعر العراقي عبدالرحمن طهماز ي وصدرت لدى دار "الآداب" في بيروت عام ١٩٨٩. وكان يجب فعلاً بُعيد وفاته تسليط الضوء عليه، هو الشاعر الذي يقال عنه كبيراً بلا تردد وبخاصة في جيل الرواد العراقيين الذي انتمى اليه ولم ينتم اليه في الحين عينه. ولعل هذا ما فعلته دار الجمل في إصدارها مختارات جديدة له في عنوان "متاهة الفراشة" أنجزها اختياراً وتقديماً الشاعر العراقي باسم المرعبي.

الاحساس الأول الذي يخامر قارئ محمود البريكان للمرة الأولى هو فرادة هذا الشاعر في صوته الخفيض وجوّه السوداوي ونزعته الميتافيزيقية وطابعه "السكوني". ويلحظ القارئ ان الشعر الذي يقرأه بعيد كل البعد عن الهمّ السياسي والبعد الايديولوجي الذين طالما شغلا الكثير من الشعر العربي الحديث ولا سيما في المراحل الحاسمة، ثورات وهزائم. كأن الشاعر عاش في عزلة عن الواقع السياسي وعن الحياة الحزبية التي جذبت معظم الشعراء العراقيين وكذلك عن الحركات الجماعية. وفي هذا المنحى يقول البريكان في أحد أحاديثه النادرة: "لم اتلاءم مع مطالب الوسط الأدبي لا سابقاً ولا لاحقاً...". وإن كان البريكان من الشعراء الذين لا يؤثرون "التنظير" ولا الكتابة عن الشعر فهو يختصر "شعريته" في حوار (ربما يتيم) أجراه معه الشاعر حسين عبداللطيف ونشر في مجلة "المثقف العربي" عام ١٩٧٠ ويقول فيه: "يبدو لي الشعر فناً لا يقبل التسخير ولا يحيا مع الحذلقة. ليس الشعر وسيلة لتحقيق أي غرض مباشر، ولا طريقة للتنفيس عن عواطف فجّة، ومن ثمّ فهو لا يخضع للتنظيم الخارجي وقلما يعكس رغبات الشاعر اليومية، لأن منطقته هي منطقة الذات العميقة". قد يمثل هذا المقطع الصغير ما يشبه "البيان" الشعري المقتضب الذي يختصر شعرية البريكان "نظرياً". وفي هذا البيان ما يذكّر بـ"المجانية" التي تبناها شعراء قصيدة النثر في فرنسا وبعض السورياليين، وهي تعني ان لا غاية للشعر سوى نفسه. غير ان البريكان لن يقترب من الشعر السوريالي مقدار اقترابه من الشعر الوجودي والميتافيزيقي الذي يصعب أسره ضمن ثوابت أو معايير جاهزة، حداثية كانت أم قديمة. وقد لا يستغرب ذكر البريكان الشاعر الألماني ريلكه ضمن الشعراء الذين يقرأهم، فهو يشبه هذا الشاعر الكبير – الذي يصعب تصنيفه – بعض الشيء، في نزعته الميتافيزيقية ومعاناته الروحية ورمزيته "المطلقة" وهدوئه... وقد يذكر جمع البريكان في قصيدته "فقدان ذاكرة" بين الجمال والفزع بجمع ريلكه نفسه بين الجمال (يرمز اليه الملاك) والرهبة في مطلع "المرائي". وتذكّر قصيدة "حضور الأموات" بالكثير من القصائد التي يخاطب ريلكه فيها الأموات ويعدّ لهم "المائدة".

الشاعر المتفرّد

لم يقلد محمود البريكان أحداً حتى في بداياته الرومانطيقية التي بدا واضحاً فيها أثر الياس ابو شبكة (النقمة على القدر) ومحمود علي طه (النغمة الأسية) وسواهما. أما في مرحلته اللاحقة – الحداثية – فكان فعلاً "نسيج وحده"، صاحب صوت فريد ولغة تبدو بسيطة فيما هي على قدر من الصعوبة، وصاحب أسلوب يدرك القارئ للفور انه اسلوب محمود البريكان المتمرد على المفهوم الاسلوبي. وان كان البريكان سعى باكراً الى التجريب الموسيقي في الشعر العمودي مازجاً بين البحور في القصيدة الواحدة فهو سيتخفف لاحقاً، في شعره الحر والتفعيلي من سطوة الموسيقى ولكن مع الحفاظ دائماً على الايقاع. والايقاع لديه لا يقتصر على الوزن والقوافي، أي على الموسيقى الخارجية، بل يشمل أيضاً الموسيقى الداخلية القائمة على التقفية الداخلية، والأمثلة في هذا الصدد كثيرة جداً (الموت/ الصوت، الأشباح/ الرياح، الموعود/ الرعود...)، عطفاً على تمرسه "التفعيلي" وعلى تحسسه ايقاع الحروف والمفردات. لكن المفاجئ في شعره الحر (التفعيلي) هو خفوت نبرته أولاً ثم سعيه الدائم الى التخفف من القوافي والتخلص منها في أحيان. وثمة قصائد كثيرة لديه تبدو ذات طموح نثري وقد يظنها القارئ أقرب الى قصيدة النثر (أو شعر النثر) منها الى الشعر الحر أو التفعيلي: "نفسه، مرة بعد أخرى، يحوم على النافذة/ نفسه ذلك الوجه، مرتسماً من وراء الزجاج..."، أو: "لو كان لي أن أطلق استغاثة واحدة/ عبر سماء الجليد..."، أو: "الموسيقى تصدح/ الجمهور يصفّق لدخول ملوك السيرك...". وقد تكمن قدرة البريكان الايقاعية في ابتعاده عن الايقاعات الخارجية وجعله الموسيقى الشعرية موسيقى ايحائية، تماماً مثل الكثير من صوره الشعرية وتعابيره. قوة الايقاع هنا تكمن في خفوته لا في ارتفاعه، مثلما تكمن أيضاً قوة اللغة في كثافتها ونثريتها لا في فيضها الانشائي ونزوعها اللفظي. ويقول البريكان في هذا الصدد: "لا أحب اللغة الفضفاضة، المتميّعة العائمة... ولا أغتر اللعب بالكلمات". ويتحدّث أيضاً عن "التركيز الذي ينصبّ على اللغة"، معرباً عن خوفه من "سيطرة اللغة على الشاعر". و"التركيز" الذي يقول به هو ما يمنح لغته قوتها و"موضوعيتها" وابتعادها عن ضروب الفصاحة والبلاغة وإغراقها في المحسوس والجليّ والبيّن.

لعل الشاعر الذي ابتعد عن الموقف السياسي المباشر والنبرة الخطابية العالية استطاع أن "يجد" لغته الخاصة جداً، اللغة "الموضوعية" في المعنى الشعري، اللغة الملموسة والحسية ولكن المشرعة على الذات الانسانية وعلى الماوراء، تشهد وتصف وتروي وتشف وتتوتر ولا تقع في شرك الكلام المطلق والهذر اللغوي والاطناب والوهم... ومما يزيد من الواقعية الشعرية لهذه اللغة ابتعاد الشعر عن اغراء "الأنا" المتضخمة التي تمسي لدى بعض الشعراء محور الوجود والكون. "الأنا" لدى محمود البريكان هي "الأنا" المنفعلة لا الفاعلة، المسلوبة لا السالبة، إنها "أنا" الشاعر الواقعي والرائي، الرومانطيقي والرمزي، "الأنا" الناهضة في عالم على قيد الانتهاء والسقوط: "أنا في انتظار سفينة الأشباح..." يقول الشاعر، أو يقول: "أنا البدوي الغريب... أنا البدوي الذي لفظته الصحارى..."، أو: "لا أرى في المرايا سوى/ شبحي المتغير... أغادر هذا البصيص الذي هو روحي...".

هامشي و"مخول"

كان من الصعب على محمود البريكان ان يكتب قصيدة سياسية أو وطنية وأن يكون من شعراء "البعث". وساعدته عزلته (وفراديته أيضاً) على أن يكون شاعراً هامشياً في زمن الشعراء "الفحول". ولا غرابة أن يسلك هذا المسلك شاعر أعلن في مطلع حياته الشعرية: "أنا من سلالة الأرواح" أو شاعر يعتبر أن ولاءه هو "للأجمل والأبعد" وأن وطنه "عالم من ظلال/ يتفكّك في الريح/ ها هوذا/ وطني الأول/ وطني المنسي". غير أن الشاعر لن يغفل عن مآسي شعبه والمكابدات الطويلة التي عاناها، لكنه يستبطن هذه المآسي والمكابدات جاعلاً منها رؤيا مأسوية متحدثاً عن "الارث الأسود"، مثلما تحدث بدر شاكر السياب عن الجفاف والجوع اللذين كثيراً ما أنهكا العراق في معانيهما المختلفة. والالفت ان الشاعر الذي لم يدخل السجن مرة في حياته من جراء ابتعاده عن انضال الحزبي والسياسي وتخليه عن الفعل "البطولي" – هو الذي ينتمي الى صفوف الضحايا – لم يتوانَ عن كتابة قصائد عدة عن السجون متمثلاً شخصية السجين ومعبّراً عن تجربة السجن تعبيراً عميقاً، روحياً وجسدياً: "في أقبية المنسيين/ لا صوت هناك. وما في الليل سوى الحزن..." يقول في إحدى قصائده. وفي قصيدة عنوانها "رقم ٩٦" يقول على لسان أحد السجناء: "الرجل السادس والتسعون/ لا اسم لي الآن: أنا السادس والتسعون". وكما كتب عن السجن (السياسي طبعاً) كتب أيضاً عن مشهد "سياسي" آخر طالما عرفته المدن التي يحكمها المتسلطون والقتلة: "كالكلب كانا ميت المجهول يُسحب باحتقار...". أما قصيدته التي تنتمي الى مثل هذا الجو المشهدي وعنوانها "حادثة في المرفأ" فهي تذكّر بجو يانيس ريتسوس (الذي لم يقرأه البريكان حتماً في مطلع الخمسينات) وفيها يصف عالم المرفأ المفعم سفناً و"صناديق ثقيلة" و"رافعات" ويروي حادثة مقتل أحد العمال: "مَن يعرف الآن القتيل؟/ لا يعرفون/ إلا اسمه. حتى اسمه بتمامه لا يعرفون".

القصائد المشهدية ليست قليلة في نتاج البريكان وهي تدل على تداخل اللامرئي بالمرئي في شعره، وعلى امتزاج الواقعي بالداخلي (ولن أقول بالاواقعي)، والحقيقي بالحلمي. فالمشهدية التي تركز على تفاصيل واقعية لا تقع في أسر الواقع والوصف والتقرير بل هي تغدو مرآة للذات التي تتفاعل مع عناصر الخارج أو العالم. هكذا يوظف الشاعر البعد المشهدي لمصلحة القصيدة وما تخفي من عمق ورؤيا. وقد تكون قصيدة "إرتسام" خير معبر عن هذا البعد المشهدي وكذلك قصيدة "نوافذ" التي يقسّمها الى ثماني "نوافذ": نافذة فتاة، نافذة عجوز، نافذة كسيح... أما في قصيدة "ارتسام" فيتحدث عن وجه ظلّ مرتسماً على زجاج المقهى بعدما غادر صاحبه وهو كما توحي به القصيدة مجرد متسول عابر.

تستدعي القصائد المشهدية لدى البريكان الخارج أو العالم بالأحرى، جاعلة منه قماشة شفيفة ترتسم عليها المآسي الشخصية، الصغيرة والكبيرة. يصبح العالم في أشيائه وتفاصيله مادة تتشكل منها القصيدة وتتشكل فيها. ولا شك في أن توالي المفردات اليومية أو المعجم اليومي في هذه القصائد دليل على ارتباطها بالحياة والعالم وابتعادها عن "المطلقيات" اللغوية والشعرية. ها هو البريكان يكتب عن "عقارب الساعة" التي "توقفت" مزاوجاً بين توقفها وتحول "العالم السيّال" الى "جسم من حجر". وها هو في قصيدة "أسد في السيرك" يرسم مشهداً واقعياً يخفي وراءه معنى حزيناً. وفي قصيدة "الغرفة خلف المسرح" يلقي ضوءاً على الوجه الآخر للمسرحية، الوجه الخفي الكامن في ما يسمى "الكواليس". وفي قصيدة "غياب الشاشة" تحضر اجواء السينما في بعض تفاصيلها. وفي قصيدة أخرى يعبّر عن مفهوم المشهدية خير تعبير قائلاً: "أجمل ما في العالم/ مشهده العابر/ ومباهجه الصغرى..." ثم يتحدث فيها عن "ايقاع الدأب اليومي" و"سعادة ما هو زائل". حتى الأيدي يكتب عنها قصيدة تحمل عنوان "الأيدي" وفيها يصف الفضاء الذي تشكّله هذه الأيدي في حركاتها وتعابيرها. ولو أن البريكان كتب هذه القصائد المشهدية نثراً لكان حتماً واحداً من شعراء "قصيدة النثر" الحقيقيين، علماً أن قصائد كثيرة له تقترب جداً من شعر النثر ليس عبر تخفيها من التقفية فقط بل في اعتمادها فعل التداعي والجمل الاسمية التي تتبدى بوضوح، مؤكدة الحال "السكونية" التي تصبو اليها شعرية البريكان. وتتخلل هذه الحال "السكونية" مقامات من الرثاء والوداع وكأن العالم هنا هو على حافة النهاية. انها "النهاية" التي تؤول اليها الحياة كي تكتمل، "النهاية" التي تحل قبل الأوان، "النهاية" المنبثقة من العدم الذي تصطخب به روح الشاعر: "جميع الأغاني ستنسى/ وكل المسرّات تثوي محنطة في الظلام". وتتجلى هذه الحال في قصائد عدة مثل "مدينة خالية" وفيها ترتسم صورة مدينة "خالية من أثر الأحياء" وتطل منها "حواء" غريبة لا تفهم أي لغة. وكذلك في قصيدة "التصحّر" و"مصائر" و"الغرفة خلف المسرح" وسواها.

عالم رحب

تستحيل الاحاطة بعالم محمود البريكان منذ القراءة الأولى. هذا شاعر كبير حقاً ويفترض شعره قراءة تلو أخرى، نظراً الى ما يضمّ من قصائد جميلة وعميقة و"حديثة" تجمع بين الاختلاج الميتافيزيقي والنزعة العدمية والهمّ اليومي و"الموضوعية" الشعرية والنفس الغنائي. لكن غنائية البريكان هي غنائية داخلية، خافتة وخفيضة الصوت ونابعة من الجرح الأزلي الذي يعانيه الشاعر، كائناً وجودياً وإنساناً غريباً في العالم وعنه: "صوت لا يشبهه صوت/ يأتي من أقصى البرية/ كتناوح ريح/ ليست من هذا العالم..." يقول البريكان. أو يقول: "وحيداً أنتمي... الى البرق الذي يكشف وجه الدهر في لحظة.../ الى جزء من الانسان في الظلمة مفقود.../ الى ما يسقط الضوء على منطقة المعنى...". قد يبدو البريكان في أحيان ذا نزعة صوفية وفلسفية مثالية (أو أفلاطونية) لكنه لا يقع في التجريد اللفظي والمعنوي ولا في جفاف السؤال الفلسفي: "أنا في انتظار الغامض الموعود..." أو: "لأن للنار وراء رقصها العنيف/ جسماً من الرماد، أو روحاً من الدخان"، "أدخل لحظة/ في مجرى الأبدية".

كم يحتاج محمود البريكان الى قراءة حقيقية، تعيد اليه حقه المفقود وتصحح الخطأ التاريخي الذي اقترفه النقاد العرب في حق شعره وتجربته الكبيرة. فهذا الشاعر المجدد والمحدث ظل شعره وقفاً على الساحة العراقية ونادراً ما كسر حال الحصار الذي وقع فيه على خلاف الكثيرين من الشعراء العراقيين. وقد ساهمت عزلته و"اغترابه" الداخلي وبعده عن الأضواء في إبعاده أكثر فأكثر عن معترك الحداثة الشعرية، هو الشاعر الحديث بامتياز والطليعي بامتياز والرائد بامتياز. وقد كان فعلاً سبّاقاً في حداثته هو الذي جايل السيّاب والبياتي والحيدري مثلما جايل سعدي يوسف ويوسف الصائغ وسواهما. شاعر رائد لا أحد يدري كيف سقط اسمه عن "قائمة" الرواد هو الذي ينتمي الى المستقبل أكثر من الكثيرين من الشعراء الذين جايلوه أو جاؤوا من بعده. ولكن لا يهم ان يظل البريكان "معزولاً" عربياً ومهضوم الحق، فهو يكفيه أن يكتب ما كتب من قصائد كي يدخل ملكوت الشعر. بل يكفيه ان الشعر كان عزاءه الوحيد في عالم ملؤه الأسى والألم واليأس: "أحاول أن أقهر الموت عبر القصائد؟ أدحر بالشعر هذا الظلام.../ أحاول أن أجعل الفقد أجمل حين أصوغ المراثي" يقول الشاعر. وفي قصيدة أخرى يقول: "أكتب حتى تجفّ العروق وأبصر هاوية/ الصفحات الأخيرة فاغرة، وأمامي/ يمتد فيه البياض السحيق". ترى هل كتب محمود البريكان ما كتب كي يكون شاهداً على صمته وعزلته ووحشته بعيداً من أي مجد أو سؤدد باطل؟ هل كتب ليبلور "قلب الصمت" الذي "يدق كساعة خفية" وليرى الأرض "بحراً من الزرقة الساطعة"؟
ما أكبر هذا الشاعر حقاً.

من ارشيف صحيفة الحياة اللندنية

محمود البريكان ..نصلٌ فوق الماء

محمد خضير

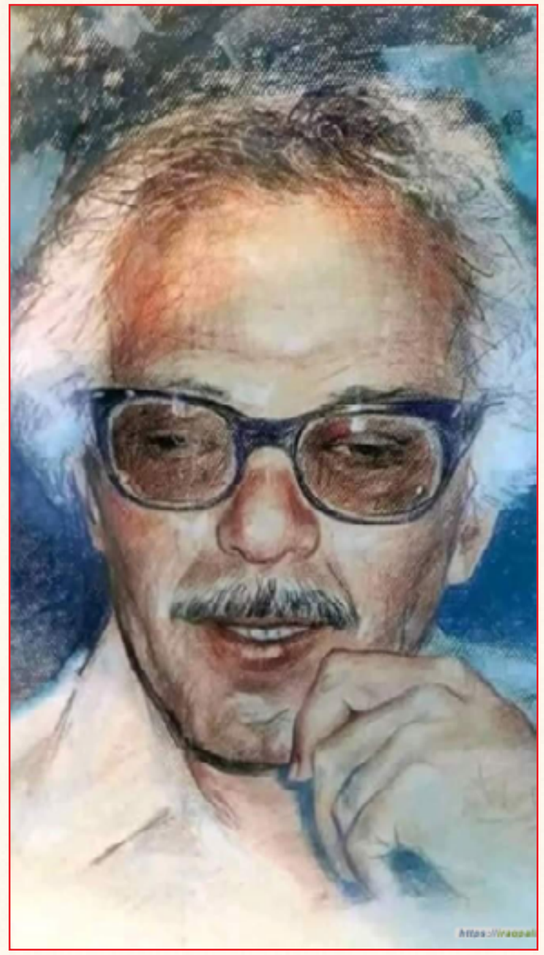

يقول الشاعر محمود البريكان في قصيدته (حارس الفنار) : كان اليوم عيد ، ومكبرات الصوت قالت : كل أنسان هنا ، هو مجرم حتى يُقام على براءته الدليل .

ونحن نقيم الطقوس المأتمية في ذكرى البريكان نشعر أننا كلنا مذنبون ، حتى نغسل أيدينا من دم الشاعر .

عندما تلقيت نبأ مقتله ، كان عقربا الساعة يشيران إلى التاسعة من ليلة شباطية مبتلة ، اكتريت سيارة أجرة ، سارت بي بلا كوابح ، في شوارع مقفرة ، متناثرة الأضواء . المدينة الحجرية غافلة ، والسماء مبللة صامتة ، والأحياء مدثرون خلف الجدران بلا اكتراث . كنت أقصد الوصول إلى مسرح الجريمة لأتمرن على دوري القادم في مسرحية (العقاب الجماعي) . أبدأ الدور بالسؤال : (لماذا تركتم البريكان وحيداً في ليلة داجية مثل هذه ؟) . سؤال تافه ، لم يدفع بلاغ مبرماً كان قد تقدّم مثل (نصل فوق الماء) ليحصد برعماً ليلياً في حديقة العباقرة التي تصدح بين أفنانها لييلات (شوبان) . أقفل المسرح ، وخُتم على الدور بسبعة أختام . نحن وحيدون ، وحيدون ، مثل غيثار غجري حزين .

بادرتُ بعد وفاته بأيام إلى استنساخ قصائده المنشورة ، استخرجتها من أكداس المجلات المحفوظة في مخزن الدار ، وكأني بهذا الأسترجاع الرمزي لآثار البريكان أبرىء نفسي من لعنة (وهم) يطاردني ، كما يطارد أصحاب الشاعر في المدينة ، وأعلمُ أن أكثرهم يحتفظ بدفاتر نسخ فيها أشعار البريكان المتفرقة ، بأعتبارها ديواناً سرياً يجهر به مزهواً في كل مناسبة تسمح بالكلام عن شخصية الشاعر المعتزل .

لقد ناء الشاعر بالام البشر ، وبكى دموعهم ، وزفر آهاتهم ، هكذا تقول قصائده ، لا عن انتماء طبقي ، أو عن تعصب عرقي ، ولكن عن فطرة وجدان صادق ، وشعور جمعي بالألم الإنساني الواحد ، هكذا قال صديقه رشيد ياسين . إلا أن الشاعر لا يلبث أن يستدرك على تعاضده مع الآلام الجماعية التي تتدفق نحوه من كل جانب ، بأقامة مرآة الوهم حاجزاً بين الوجود وعدمه ، بين الحقيقة وظلها ، فالبشر (يموتون بداء الوهم) على انفراد ، كما يموتون بفعل الحروب والمجازر الجماعية على مرّ العصور .

أين تكمن حقيقة الموت الفردي والجماعي حول ملجأ الشاعر غير الحصين ؟ إن إحصاءً كاملاً لمئات المفردات المتوارية في ظل مفردة (الموت) والتي تتأرجح خلالها رقاص لنا أبعاد (الوهم) التي يتأرجح خلالها رقاص (الساعة السوداء) المعلقة على الجدار بين (البحر / الصحراء) و (التيه / الوجود) و (الماضي / الحاضر) و (الآن / الأبد) و (الماء / المرأة) . والشاعر يحصي دقات الساعة : وهم .. وهم .. وهم ..

إن الموت يظهر في (ظلمة الرؤيا) مثل (نصل فوق الماء) كما يتقدم في الوجود الخارجي مثل (مسخ من المسوخ المقنّعة) في (ظلال المرأة) . ولكنا ينتظر موته مثل (قوس مشدود) ولكن لا علامة على الرحيل ، والرحلة لم تبدأ بعد . إن (الانتظار) واحد من مراكز المعنى القوية في شعر البريكان ، يمدده ويدوّره كما يمدّد خباز رغيفاً على لهب التنور أمام عيون الجياع المنتظرين عند بوابة الرحيل .

جاء الموت أخيراً ، الموت الذي انتظره الشاعر طويلاً ، بلا قناع ، في ليلة لا كأس فيها ولا نغم ، بل وحدة شديدة الوطأة ، وصمت ثقيل . جاء الموت مسخاً حقيقياً انتزع روح الشاعر ، غائصاً في ظلمة الليل . ولم يكن الموت وهماً . انتظر البريكان الموت ، ولم يكن مستعداً بما فيه الكفاية لمواجهته ، فقد كان أوهى من أن يقاوم صخرة ثقيلة ، جهمة الملامح ، تدحرجت في الخفاء وسحقته على سفح الوجود الأملس . بل أن رعبه من الموت بلغ أقصاه عندما لمح في حدقتي القاتل ، الذي يشهر نصل العدم البارد أمامه ، بريق الألم الإنساني المتموجة مثل ضوء فنار بعيد . غاص الخنجر بين الأضلاع النحيلة ، حينئذٍ جاء الشاعر يقين بابتداء الرحلة المنتظرة ، مع طعنة الألم الحقيقي .

لم ينتظر البريكان موته كما انتظره القدريون والدهريون ، ولم يخادعه بارتداء الأقنعة ، أو يستمهله عمراً اضافياً ، إذ لما واجه مصيره على ساعة الوجود المتحركة إقداماً وإدباراً ، يساراً ويميناً ، تخلّى عن (حقيقته واسمه) لـ (الرياح التاريخية) وانتمى إلى زمن الفكرة الجميلة ، زمن الحرية . لقد رأى في مخادعة الموت عبودية للحياة واستزادة من أثقال الوجود ، فاعتزل المصير الجماعي وواجه مصيره بمفرده . زودته موسيقى العزلة بأجمل الأفكار ، وساعدته حرية الشعر على مقاومة العدم . إنّ الحرية – وقرينها الجمال ، جمال الأفكار – أقوى اختراعات البريكان الشعرية . سار خارج الزمن لكي يتفادى ساعة الموت الحقيرة ، واتخذ الشعر سبيلاً دائرياً حول قبور الماضي . كان الشعر درعاً صنعه البريكان من عيار الأفكار الخالدة . لكن الشاعر الذي ابتكر نوعاً قيماً من مقاومة العدم ، فاجأه الموت بسلاح بدائي محمول بيد بشرية جاهلة ، عدوانية بالغريزة ، كان موته من عيار تافه لا يأبه بقلوب الشعراء وأغنياتهم الفطرية ، ولو أن قاتله انتبه عند الطعنة الأولى لقيمة الشاعر لأمسك يده عن أن تتوالى على الجسد المتهاوي بخمس عشرة طعنة أخرى ، بينما كانت غريزة العدم المجردة من الرحمة قد اسقطت كل تبرير عقلي عند القاتل الذي أمعن في انتزاع روح الشاعر .

يقال أن سائق السيارة الأهوج الذي دهس المفكر الفرنسي (رولان بارت) ندم ندماً شديداً على فعلته عندما وعى غفلته بحق رجل شهير . إن القتلة مصنوعون بمعايير لا يتصورها المغدورون . فلا بارت ولا منعم فراد ولا البريكان ولا غيرهم من أبرياء الحياة (الساذرين في نوهمهم) قادرون على تجميد اللحظة المهينة التي تتقدم نحوهم مثل (نصل فوق الماء) . إنها لحظة متماهية خارج الزمن والوجود في المرايا المنصوبة على الطرق غير المألوفة ، ولا ينفع معها أي ندم . لقد أعدم قاتل البريكان خطط الشعراء لموت غير مألوف .

يقول (بورخس) في أحد أحاديثه : (الخلود الشخصي ، مثل الموت الشخصي ، أمر لا يصدق) . لكننا ونحن الذين لم نشترك مع البريكان في حياته الشخصية التي صممها مثل ثوب على مقاسه ، نجد في موته خرقاً واسعاً في ثوب حياتنا . نحن الذين لم نصدّق (موته الشخصي) صرنا نتعزّى ببقاء قصائده شاهداً على (خلوده الشخصي) .

محمود البريكان الشاعر القتيل

ياسين النصير

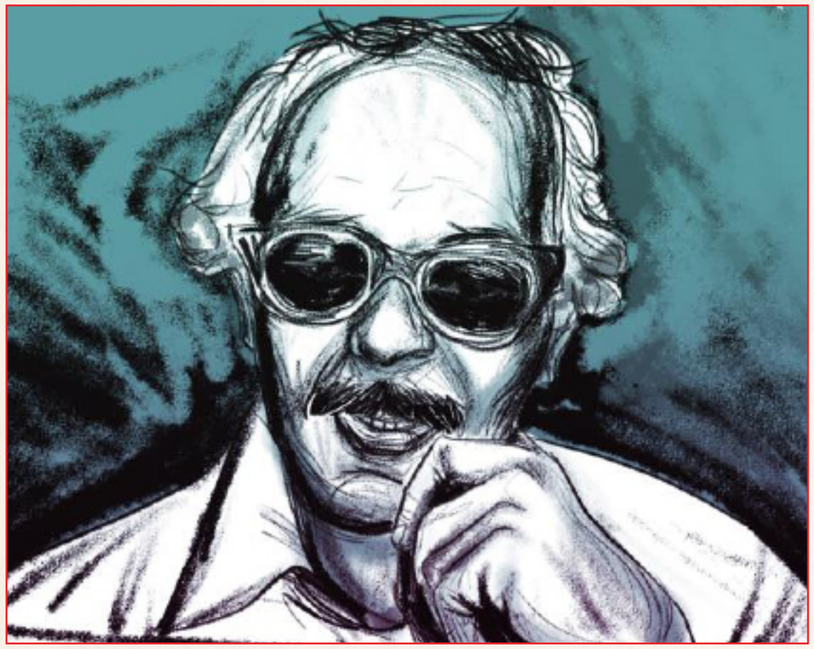

قد أعيد في هذه المقالة القصيرة عن الشاعر القتيل محمود البريكان شيئا من البصرة، فمثل هذا لا يحدث دائما، أن يستدعي الشاعر مدينته أو أن تستدعي المدينة مثقفيها: فاقتران شاعر العزلة والصمت الخلاق، بمدينة الميناء واللغة والتراث هو اقتران الجغرافيا الخلاقة بالمبدعين. وحيث الغربة التي تلغي فيك: بيتك، ومدينتك، وناسك، و مرابع صباك. تضيف إليك وجعا آخرا لم نكن نعرفه نحن العراقيين، ألا وهو الحنين المشبع بمأساوية حين تعيد صورة مدينة مطمورة في الزمن، فكيف وأنت تفقد صديقا مبدعا وخلاقا مثل البريكان الذي لم تلتق به إلا بضع مرات بين البصرة وبغداد، داخل الدرس وخارجه، في مقهى وفي شارع!. وكانت كافيه لمعرفة ما يجول في فكر هذا الشاعر المبدع. فقد تكون الكتابة عن موضوع كهذا هي نوع من استرجاع الذاكرة لما يذهب منها . هكذا نحن نفقد بفقدان الأصدقاء الكبار أجزاء من وجودنا وهويتنا. أي تاريخنا الشخصي.

لا يذكر السياب والبريكان وسعدي يوسف ومحمود عبد الوهاب ومحمد خضير ومهدي عيسى الصقر ومحمد سعيد الصكار وغيرهم إلا ذكرت البصرة. هذا الكيان السماوي الذي حط على الأرض العراقية ثم ولّد مدنا وبلدانا بلغة عربية، وبعمارة عربية، وبعادات وتقاليد عربية، المدينة التي جمعت بين نخيل مثمر، ومياه مرتحلة، بين مد يسقي وجزر يسحب أوساخ المدينة، مدينة على ضفاف نهر كبير هو جمع بين دجلة والفرات. يجاورها بحر كبير ، هو الآخر جمع بحار. فالنخل فيها جوار السدر، والشناشيل جوار بئر النفط. وأهوار مانحة جوار شجرة آدم. هي البصرة، أقدامها مياه، وسماؤها مياه، وعقوق نخيلها ثمار. وأنت تتلو آيات العطاء ما بين ثمر ومطر، نخيل وسباخ القرامطة والزنج تجدها مدينة لم تخلق إلا لتبقى.

البريكان حصيلة هذه الثمار كلها ، شاعر ولدّ لغته من صمت نخيلها وصبره، من لغة الفراهيدي وعتبة بن غزوان والجاحظ ، ومن كل ما يمكن أن يبقى شاخصا للغد. ولكن البصرة كغيرها من مدن العراق انتزع عنها ثوبها القديم الحديث وبقت عارية من أبنائها وتاريخها. لذا ليس مستغربا أن يقتل شاعر أو أديب فيها، فالقتل سمة أصبحت مع الأسف الشديد حالة مرادفة لكل من يقول لا لعهود الظلم والتعسف والموت. والبريكان بصمته وعدم انخراطه في جوقة المادحين، قال لا. اللصوص هذه الثيمة المبهمة ، يصبحون قتلة وهم بالتأكيد قتلة، لكنهم وهم المبهمون وغير المعروفين يختفون عن الأنظار، ولم يلق القبض عليهم رغم أنهم يمشون على أطوال قاماتهم وأمام أعين الرقباء. بيان صحفي صدر في بغداد عن أن قتلة الشاعر محمود البريكان هم لصوص سُرّاق . وهذا بالنسبة لهم يكفي لإبعاد التهمة، ورغم أننا لا نقول غير ما يقولون، وقد يكون صحيحا ما لم يثبت عكس ذلك. فلماذا يقتل شاعر هو أفقر من حصاة في برية العراق؟. وهل أن ثروته المادية كانت مغرية للصوص وكلها موسيقى دأب على جمعها منذ كان في دمشق وبيروت والكويت في خمسينات القرن الماضي واستمر يجمعها حتى أخر نفس من حياته عندما كان يأتي بغداد ليتسوق الموسيقى الأجنبية من أورزدي باك. الموسيقى هي كل ما يملك من ثروة في هذا العالم، وهل أن هذه الثروة الفنية نافعة للص في مرحلة القحط الثقافي؟ لا أعتقد أن لصا معنيا بالموسيقى يكون معنيا بالقتل أيضا؟

مرة أخرى لا نقول غير ما تقول إعلانات الصحافة الرسمية، عن موت ومقتل متنبي العراق الحديث وصاحب القصيدة المبكرة في تثبيت جوهر الحداثة. الشاعر محمود البريكان .ولكنه كما يبدو القدر الذي دفع بلص إلى قتل شاعر الصمت وشاعر الرفض والموقف، الذي مثل موقفه الرافض شرفا لكل الأدباء في الداخل وفي الخارج. فقد رفض قبل سنتين أن يلتقي طاغية العراق، لتكريمه فكان رفضه هزة لأجهزة الثقافة لم ينفع معها قبول الآخرين الذين أجبروا على توقيع ورقة يعترفون بها بفضل حاكم العراق على الثقافة والمثقفين. إن ما جعل البريكان يوغل في عزلته هو هذا التهاون لدى المثقفين في لعب أدوار ليست أدوارهم، وليتحولوا إلى جوقة مشروخة الصوت في مسيرة الحروب الدموية.

في الثقافة العربية يعرف البريكان بأنه صاحب القصيدة المتماسكة والغنية بالصور الحديثة، فالحداثة لدية ليست لعبة فنية أو شكلية بل هي موقف وجودي من الحياة. وموقف نقدي من الحداثة غير المنهجية أيضا. فهو يعيد ثورة الحداثة في الشعر إلى طابعها العربي المعاصر عندما يربطها نقديا وبنائيا بحركة الشعر الرومانسي العربي. وليس كما يفعل نقدنا عندما يعيد تكوينها إلى تلك القصائد القليلة التي ترجمت من الشعر الإنكليزي أو الأوربي . ففي جوهر الحداثة عند السياب وغيره تقرأ شعراء مدرسة الديوان وأبوللو والمهجر والموروث العربي القديم .

الشعر الحديث كما يفهمه البريكان هو "نفاذ لأعماق إنسان العصر، يتجاوز مظهر العاطفة، ولابد أن يصدر عن ألذات الحقيقية للإنسان، لاعن شخصيته المصنوعة المطبوعة بطابع البيئة والتقاليد. ويتسم الشعر الحديث بطابع الحرية والتوتر، فهو ابن عصره، وهو يعتمد الإيحاء لا العرض،واقتناص اللمحات لا تجميع التفاصيل، وأود أن أضيف إن تراكم الصور وهو ما يظنه كثير من الشعراء أية حداثة – ليس إلا طريقة متخلفة- فليس أمام الشعر الحديث إلا أن يتجه إلى التركيز، واستقطاب اقل عدد من الصور حول بؤرة ما. والواقع – يقول البريكان- لم يتمثل فعليا هذه الحقيقة إلا في حالات قليلة، وذلك مع مرور كل هذه السنوات على الحركة الشعرية الجديدة.ويهمني أن أؤكد أن الحداثة يقول البريكان ليست سمات مظهرية. بل هي التحسس العميق لوضع الإنسان الحديث متبلورا في صيغة فنية مناسبة.فالأصالة إذن تأتي أولا، وخارج نطاقها تصبح غير ذات موضوع.

في اللقاء المهم الذي أجراه معه الشاعر حسين عبد اللطيف وهو من طلابه أيضا والذي نشر عام ١٩٦٩، ونشرته جريدة ثقافة ١١ في عددها السادس عام ١٩٩٨ التي تصدر في هولندا يكشف البريكان فيه عن حس شمولي لمفهوم الحداثة لم نجده عند أي شاعر حديث في زمنه. فهو ينطلق بالحداثة من موقف فلسفي عميق لمفهوم متأصل في تكوين الإنسان المسئول نفسه، وليس الإنسان العادي. فالشعر عنده مسؤولية كونية. وقائله يرتقي إلى مصاف الخلاق الكبار. فيقول عن ذلك" أن الشعر فن لا يقبل التسخير، ولا يحيا مع الحذلقة، ليس الشعر وسيلة لتحقيق إي غرض مباشر، ولا طريقة للتنفيس عن عواطف فجة ومن ثم فهو لا يخضع للتنظيم الخارجي. وقلما يعكس رغبات الشاعر اليومية. لأن منطقته ، منطقة ألذات العميقة، فالشعر هو أبن النزوع الإنساني، وموضوعه الأساس تجربة الوجود بكل شمولها. وهو تمثل خاص لواقع التغيّر في الزمن، وقلق المصير والتأرجح بين الراهن والمنشود. إن شاعرا يفهم الحداثة مثل هذا الفهم العميق لا يمكنه أن يكون شائعا بين أقرانه ولا في مجتمعه، شاعر مادته الحداثة لا يمكنه إلا يرافق العزلة ولعله الموقف الذي دفع به لأن يرفض أن يكون في جوقة المادحين للأنظمة، مما جلب عليه غضب الساسة والمريدين.

ومن خلال تشخيصه لحركة الشعر العالمية نجد البريكان ينخرط في إطارها العالمي ليس من خلال ما يقرأه من شعر لشعراء عالميين مثل طاغور، الذي يقول عنه أنه شاعر حقيقي أو ازرا باوند وريلكه وأليوت ونيرودا وناظم حكمت وخيمنت وباسترناك وغيرهم بل من خلال ميله الشخصي والحداثوي إلى الشعراء الذين يكون نتاجهم نوعا من عظمة الروح الإنسانية.فهو لا يبهره التأنق والاصطناع، فعلى الشاعر أن يتبع طريقه الخاص ، واستعارة لهجة الآخرين هي طريقة سيئة في الاعجاب.

محمود البريكان.. اجمل ما في العالم ، مشهده العابر

ناجح المعموري

هو كرس تجربته الشعرية حول الانطولوجيا وربما تبدو هذه الخاصية التي لها انعكاس ظاهر جداً ، متأتية من تنوعات قراءاته وعلاقته بالموسيقى ،

التي تقود الكائن الحساس نحو انشغالات ليست عامة ، بل هي خاصة جداً والولع الانطولوجي فيه رواسب التجارب عالمية . وظفر البريكان من الاهتمامات التي شاعت وتلبست ابناء جيله وتبدى هذا الموقف الثقافي والمعرفي متلبساً كل تجربته وتشرب البريكان به، لذا اتضح ذلك عن سلوكه اليومي وليس تجربته الشعرية فقط . هو الذي قال :

اجمل ما في العالم
مشهده العابر

هكذا تعامل البريكان مع الحياة المغلقة بتفاصيل الانطولوجيا وغارقة وسط سوادات الحياة وغربة الكائن ، فيها حاملاً قلقه صليباً ، معلناً عنه ، متمسك به ، لأنه وريث المقتول بصليبه .

هذا مقطع شعري حساس جداً، كاف لتقديم كشوف ثقافية وانطولوجية ، تضع الشاعر في مغايرة للسائد في العام من التجارب العراقية والعربية قليلاً . وما عبر البريكان في هذا المقطع حساس وفيه قسوة ضاغطة، تضع الذات وجهاً لوجه مع المجهول من المصائر، التي لا يشك البريكان ما بها ستختار نهاية للانا، وتضع جداً لهمومه وشحنات القلق والعدمية التي اضاءت قصيدته «حارس الفنار» وقد اضاءها القاص والروائي يعرب السعيدي بالتماعات نقدية ذكية بوقت مبكر ولابد من التذكير بأن البريكان كتب عن مشهد الغياب والذهاب والفراغ والضياع كلها عبر عنها الفنار الذاهب الى اين؟ وعلى بقاء الفنار ماثلاً في البحر لزمن ليس قصير، لكنه يختصر الذهاب الى اين؟ الناظر لا يدري الى اي مكان هو يتحرك. وهذا ما اختصر المقطع الشعري «اجمل ما في العالم / مشهده العابر « والفنار صورة مثيرة بشعريتها. ما ذهب اليه البعض ضد موقف البريكان الانطولوجي بسبب سياسي كان حاضراً ومهيمناً، بينما قرأ الشاعر فوزي كريم تجربة البريكان بذكاء ملتمع ودقة، من شاغل البريكان الشعري، الذي بدا غريباً عن شاغل شعراء المرحلة، هو شاغل المعترك الداخلي والذي تبدو الوجودية ظلاً من ظلاله. لكن هذا لا يعني بأن الاحساس بالعدمية معدوم، لأنه يواجه مصيراً ليس فردياً، وانما هو مصير بشريته.

أضاف الشاعر فوزي كريم : أن الاعتقاد بعدمية البريكان ستضطرنا الى ايجاد مخرج تأويلي من قراءة قصيدة اخرى للبريكان تحت عنوان «احتفاء بالأشياء الزائلة» يبدو فيها الشاعر غاية في احتضان الكائن الانساني، والاحتفاء بمجده ومجد الارض التي يقيم عليها:

ارفع أيد
تمتد الى دفء النار معاً
وعيون اربع
تتأمل طفلاً في مهدٍ
مائدة
من زاد الفقراء
وحديثٍ هادئ
الليل فيلم السهرة
انسام الفجر ترف رفيف جناح الفراشة
العشب اللين بعد الغيث
يبدو منتعشاً ونظيفاً

يتضح البريكان في هذا المقطع من نصه الشعري «احتفاء بالأشياء ، الزائلة» شعرية منفتحة على الحياة المعدمة، الفقيرة، لكنها سعيدة، لأنها ارتضت ما جعل من الحياة مسحة تستحق العيش .

ذهب فوزي كريم الى ان هذا الوضوح بقصدية البريكان لا يلغي العدمية كموقف ثقافي ومعرفي، لان ذلك يمثل نتاجاً طبيعياً للصوت المرهق بالتساؤل الذي القاه في قصائد البريكان الاخرى. ما من تعارض الا اذا اخذنا معنى «العدمية» مأخذاً فلسفياً غير شعري. وهذا الامر يعيدني قليلاً الى اليوت ومعادلة الموضوعي «يقول في واحدة من» مقالاته المختارة «ان الشاعر الذي يفكر هو الشاعر الذي يملك ان يعبر عن المعادل العاطفي للفكرة لا غير: لكنه ليس بالضرورة معنياً بالفكرة ذاتها.

رسم الموقف الانساني المتسامي لنا اجمل النصوص الشعرية التي لا يمكن لأكثر التجارب المعنية بالواقعي من الدنو اليها... لكن هذا الموقف الفني لا يعني تأكيد قطعية مع الاحساس العدمي لدى الشاعر .

المناجاة العاطفية المعبرة دون وسيط عن فكرة العلاقة والتفاني بالتعايش المشترك، وثنائية النوع التي لم يصرح بها، وتكتم عليها، هكذا هو البريكان لان الشعر لا يفصح عن اسراره ومخفياته، الاثنان هما اربع ايد، وعيون اربع، تتأمل طفلاً.

لحياتهما معنى، هو الذي لا يعطل الموقف المعرفي الذي اختاره البريكان. لذا لعب البرق دوره الرمزي والكشاف وما يؤديه الرمز ـ البرق ـ ذاته الذي فاض معنى عبر «حارس الفنار» وقدمته البروقط، لا تختلف كثيراً عن إضاءة الفنار المتسامي عالياً.

قبةُ الليل في لحظة تتفطر
الارض بحرٌ من الزرقة الساطعة
البيوت
فجأة تستحيل شواهد من مدن دارسة
البيوت
ثم تستأنف الكائنات تنفسها
وتواصل في العتمة القارسة
بنبضها

العدم غير مختف، بل معاين، صورته بطاقتها الحسية ملفته للانتباه فالكائنات تعاود تنفسها، بعد دمار علامات مهمة للمدن وبيوتها، تعني تدمير كامل لكن الامل الطفيف يلقح الحياة بفسحة من الحياة التي يستحق البقاء من اجلها. والبرق في هذا النص هو الامل والمرتجى بحصول متغيرات جوهرية.

المجهول يطرق المغلق ويثير نوعاً من الرعب، وتضيق تصورات الانا الملاحق بلحظة غامضة ، لكنها معلومة غير معروفة زمنيتها.

يعاين الكائن ذاته بلحظة تستدعيه وهو بقلق وريبة، لان الامتحانات دائمة الحضور في الحياة لان الحياة خالية من المصاعب، والامتحانات، لن تكون حياة. لذا فان حيرة البريكان ليست مؤقتة والتفاؤل لم يكن مستمراً. هو شاعر ارتضى ان يتوزع بين هموم وآمال، لكن الاختبار ملاحق له، لا يعرفه بأي طريقة يحضر ويأتيه وتتحقق نهاية المجهول، المعروف .

الكائن / الفرد، غريب، مطرود، يرى ويتجاهل ويطفر من بين اكوام هي انهيارات، يجلس بها حاضرة بشكل بسيط، لان الشاعر منحها صفة التنفس. وللأسف فان اجمل ما في العالم مشهده العابر / ومباهجه الصغرى/ طوبى لك/ ان كنت بسيط القلب/ فستفهم مجد الارض القلب / سحر الاشياء المألوفة/ ايقاع الدأب اليومي/ وجمال او اصر لا تبقى/ وسعادة ما هو زائل. نص فياض بضغوط وارتباك، كلها تفضي الى حياة لن تكون هي الحلم، فالفنار مفقود والبرق مؤقت السر يحتفظ بتكتماته، لأنه مجبول عنها.

ما قاله فوزي كريم رسم به توصيفاً عميقاً وبليغاً للبريكان الذي تعامل مع الانسان وشرط حياته ومصيره محوراً مركزياً في كل تجارب البريكان الشعرية. وهو بهذا المحور يقف على مبعدة من التيار الشعري العراقي الرائد جملة، باستثناء السياب، الانسان، لا لأفكار التي يولدها الانسان بفعل معتركه مع التاريخي، هو الذي يعني البريكان الشاعر، بالدرجة الاولى. حتى مشاهد الحيوان والشيء «السفينة/ النسر، الجواد القديم/ المدينة، الصخرة. لا انما تتأنس داخل خبرة القصيدة. بالإضافة لكل هذا فأن البريكان شاعر منشغل بالتاريخ ولكن فقط، لكي يحسن الانفلات منه.

من ارشيف الناقد الكبير ناجح المعموري وسبق ان نشرت في صحيفة المدى

محمود البريكان يتحدث عن تجربته مع الشعر الحر

الشعر الحر ليس أسهل من الشعر العمودي ، وهو يحتاج إلى حس موسيقي خاص والى درجة عالية من التركيز ..

أعد المقابلة : عبد الرزاق سعود المانع

الستاذ محمود داود البريكان ، مدرس اللغة و الأدب العربي ، في معهد إعداد المعلمين في البصرة . ورئيس تحرير مجلة (الفكر الحي) التي تصدر عن مديرية التربية في لواء البصرة ، وهو واحد من الشباب المثقف ، ذوي الأطلاع الواسع في الأدبين العربي والغربي ، وصديق الشاعر المرحوم (السياب) له تجربة واعية مع الشعر المعاصر ، وله فيه رأي خاص ، ننقله في هذا الحديث السريع الذي اجريناه معه ..

– نحب أن نبدأ ببعض الأسئلة الخاصة ، منذ متى بدأتم ، يا استاذ محمود ، قرض الشعر ؟

× البداية الحقيقية للشاعر هي الفترة التي يتبلور فيها اسلوبه الخاص ، وموقفه من الوجود ، وكل ما قبل ذلك فمحاولات بدائية . لقد كتبت كثيراً ومزقت . على أن التحول الشعري لدي بدأ في وقت مبكر جداً ، خلال سنوات الدراسة .

– وهل قلتم الشعر في البداية على اسلوب الشعر الحر أو الشعر المقيد ظ

× لقد بدأت بداية كلاسيكية ، وخبرت ألوان الشعر واوزانه ، ثم اتجهت إلى طرق أبواب جديدة ومن ثم ، إلى سلوك سبيل التحرر في الأوزان . غير أني لم أتخل عن العمودي ، وبقيت ألجأ اليه في بعض الحالات ، ولا أرى تعارضاً في ذلك .

– سمعت أخيراً أنكم تنوون اصدار ديوان لكم ، فما مدى صحة هذا الخبر ؟

× في النية اصدار ديوان هو جزء من مجموعة مؤلفاتي الشعرية غير المنشورة ، ويؤمل أن تصدر بعده الأجزاء الأخرى . المشروع قائم ، وقد يحتاج إلى بعض الوقت .

– وعن الشعر الحر ، ما رأيكم في التهم التي يوجهها خصومه اليه والى القائلين فيه ؟ على سبيل المثال : انه انما يقصده القائلون فيه طلباً للسهولة وقصوراً منهم عن الشعر المقيد ؟

× لقد كثر الكلام حول (الشعر الحر) كما كثر الذين ينظمونه من غير المؤهلين ، أن أكثر ما ينشر من الشعر (الحر) لا يمت إلى الشعر ولا إلى الحرية . بل هو كلام هجين ، ليس فيه جمال الشعر ولا بساطة النثر . وهذا لا يعني سقوط الشعر الحر ، بل سقوط الشعراء . أن الشعر الحر موافق لمطالب التعبير العصري ، ولكنه أنما يثالق على أيدي الشعراء الحقيقيين ، فاما التافهون فيحولون كل شيء إلى مجرد بدعة صورية ، فلا .

– هل تعتقدون أنه اكتملت للشعر الحر المقومات الضرورية لكي يحيا ويستمر ؟

× المهم امكانات الخلق ، والشعر الحر أقدر على تجسيدها . الأكثرون يقلدون فيبتذلون كل شيء . أما المبدعون فيتخطون أنفسهم ، وهؤلاء يحيون وتحيا معهم أشكالهم . للشعر مستقبل ، هو نفسه مستقبل المواهب ليس لنمط الشعر الحر أي قيمة في ذاته ، التجديد هو أولاً قضية روحية .

كلا ، لست قلقاً على مصير الأوزان الحرة ، ولكن هل تتحقق من خلالها إبداعات عظيمة ؟ أن تبدع أو لاتبدع ، هذه هي المسألة !

– المعروف أنكم يا استاذ ، تعزفون كثيراً عن النشر ، فهل تعتقدون أن هذه هي الطريقة الصحيحة في حياة الأديب ؟ وبالنسبة للناشئين من الأدباء هل ترون الأقبال على النشر أم التحفظ فيه والأقلال منه أصلح لتقويم نتاجاتهم ؟

× هذا موضوع دقيق ، تصعب معالجته في كلمات قلائل . وليس هناك قانون واحد للأدباء ، لأن الأدباء مختلفون طاقة وهدفاً . من الأدباء من يناسبهم ويكفيهم النشر في الصحف والمجلات والأذاعات . انهم يطفون فوق الأحداث اليومية ، ويخاطبون الذوق السائد ، ويطلبون شهرة لا تدوم ونجاحاً شخصياً خادعاً وقد يكون لبعضهم دوره وأثره الوقتي المحدود ، ومن الأدباء من يتطلعون إلى مستويات خاصة ، ويطمحون إلى إنجازات حقيقية باقية والى تحقيق اعمال فنية كبيرة . انهم يتمسكون باصالتهم أمام مختلف المؤثرات ، فمن الطبيعي أن لا ينخرطوا في اية جوقة ، وأن يبتعدوا عن الأجواء الأدبية الدعائية ، أنهم مشغولون بالحياة والإبداع ، وهم يريدون أن يخدموا قضية الإنسان بالطريقة التي تناسبهم فبالطبع يكتب المرء ليقرأه الآخرون ، ولكن من حقه أن يقرر اسلوب التزامه ولماذا يجب على أي أديب أن يظل من نافذة الصحافة ؟ أو يتكيف لما تقتضيه الإذاعات من اسفاف ؟ أنا مقتنع أن وسائل الإعلام في وضعها الراهن تسيء بالجملة إلى القيم الثقافية الرفيعة ، وهي تميل إلى تسطيح الأعماق وتحويل الفكر إلى نشاط استعراضي . أنت ترى أن القضية قضية قناعة شخصية ، وعلى كل اديب أن يقرر طريقة وأن يحدد وسائله ومستقبله تبعاً لذلك . ولئن كان الأديب مسؤولاً فأنه حر في أن ينهض بمسؤوليته وفق ضميره الخاص أنني لا أثق بمقتضيات العرض والطلب في الحركة الأدبية . على الأديب أن يحمل مسؤوليته وحيداً . ومن الطبيعي أن يتخطى ما هو راهن وان يغامر على المستقبل .

– أخيراً أما هي اللوازم والشروط الضرورية للشاعر اليوم ، في رأيكم ؟

× التشبع بالتراث : الشعري والفكري ، إلى الحد الضروري لتكوين حس تاريخي عميق بالموروثات وعبقرية اللغة .

التفتح على العصر ، وتمثل ثقافته ووعي ظواهره وأحداثه .

حب الحقيقة . النقد الذاتي .

وأولاً وأخيراً : أن يكون المرء حياً ملء الحياة .

مجلة البيان الكويتية (كانون الثاني) ١٩٦٩

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى
للإعلام والثقافة والفنون
فخري كريم
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين
هيئة التحرير
غادة العاملي
رفعة عبد الرزاق
يمكنكم متابعة الموقع الالكتروني
من خلال قراءة QR Code:
www.almadasupplements.com
Email: info@almadapaper.net
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

محمود البريكان... أسطورة الغائب الشعري

عارف الساعدي

شكّل الشاعر محمود البريكان ظاهرة كبيرة في الشعرية العراقية والعربية، اتسمت بجودة شعره وباحتجابه وزهده في الحضور والنشر، فنادرا ما تجد شاعرا زاهدا في حضور المهرجانات أو الدعوات والسفر وطباعة الدواوين واللقاءات التلفزيونية، والكثير الكثير من عوامل النجومية والشهرة التي يطمح أغلب الشعراء لها، إلا أن البريكان زهد بكل ذلك. ولكنه في الوقت نفسه، بقي ساهرا وحارسا على القصيدة العربية الحديثة، يتأملها ويراجع فيها، يضيف لها مزاجاً مختلفاً عن معظم الرواد، فينفر بها بعيداً عن غنائية جيله، ورومانسيتهم، يغذي قصيدته بمرجعيات ثقافية كبرى، ربما تعدى شعراء مجايلين له بخطوات عديدة، حيث الثقافة العربية والأجنبية تدخل بقوة في نسيج القصيدة البريكانية، تلك التي تحولت بفضل صاحبها المحتجب إلى ما يشبه الأسطورة، حيث تنسج الحكايات والقصص الغريبة عن شاعر عراقي اسمه محمود البريكان يراه شعراء البصرة بعدد محدود جداً. لم يكن متاحاً للجميع، لذلك تحول إلى أسطورة الغائب الشعري، الذي نتسقط حكاياته وأسراره، حتى قيل لنا إن قصائده أيام الحرب العراقية – الإيرانية كانت مودَعة في مصرف الرافدين فرع البصرة، وهي حكاية غريبة لم نتثبت من صحتها، ولكن البريكان تحول مثل كرة الثلج إلى حكايات وأساطير، حتى موته كان يشبه الأسطورة حين تنبأ به في أحد نصوصه:

على الباب نقر خفيف
على البابِ نقر بصوت خفيف ولكن شديد الوضوح
يعاود ليلاً. أراقبه. أتوقعه ليلة بعد ليلة
أصيخ إليهِ بإيقاعه المتماثل
يعلو قليلاً قليلاً
ويخفت
أفتح بابي
وليس هناك أحد
مَن الطارق المتخفي؟ ترى؟
شبح عائد من ظلام المقابر؟
ضحية ماضٍ مضى وحياة خَلَتْ
أتت تطلب الثأر؟
روح على الأفق هائمة أرهقتها جريمتها
أقبلت تنشد الصفح والمغفرة؟
رسولٍ من الغيب يحمل لي دعوة غامضة
ومهراً لأجل الرحيل

وهذا الغياب المتعمَّد من البريكان نظر إليه نقّاد وباحثون منهم الدكتور حيدر سعيد، حيث سمّاه «شهوة الغياب»، فمثلما أن للحضور شهوة، كذلك فإن للغياب شهوة تمنح الغائب هالة عظيمة، وهذا ما كان عليه محمود البريكان الذي ربما كان يشعر بالمرارة حين لم يجد اسمه في قائمة الشعراء الرواد، وهو الذي ينظر إلى نفسه وإلى تجربته على أنه متقدم على تجربة الرواد فنياً.

وحين ننظر إلى نتاج البريكان الشعري، ففي الواقع لا يوجد عمل شعري يجمع كل شعره، فقد كان محتجباً عن النشر والظهور، ما عدا بعض الملفات والقصائد التي كانت تُنشر له، وبالأخص ملف مجلة «الأقلام» ١٩٩٣ وملف ١٩٩٨، فضلاً عن عمل نشره عبد الرحمن طهمازي دراسة ومختارات ضمت ١٢ قصيدة فقط «سيادة الفراغ: محمود البريكان» ١٩٨٩، وآخر نشره باسم المرعبي «متاهة الفراشة» ٢٠٠٣ ضم ٧٠ قصيدة، لذلك بقي شعر البريكان حلماً يراود جميع مريدي الشعر الحديث فضلاً عن أن حضور شعره الآن هو استحضار له من جديد، قد ينافس على الريادة، من حيث الأسلوب والموضوعات، لا من حيث التاريخ والبداية.

قصة هذه الأعمال الشعرية بدأت حين كلّفني الناقد والمترجم الدكتور حسن ناظم وزير الثقافة والسياحة والآثار السابق، مديراً عاماً لدار الشؤون الثقافية، حيث بدأنا بسلسلة في غاية الأهمية بدأناها بالأعمال الكاملة للجواهري، ومن ثم استمرّت القائمة لتشمل عدداً كبيراً من الرواد العراقيين في ميادين الشعر والقصة والفكر والمعرفة، وهنا التمع البريكان في ذاكرتي مرة ثانية، وبدأت اتصل بأصدقائي من شعراء البصرة، وأسأل عن شعر البريكان، أين ذهب؟ وهل هناك جهة تحتفظ بشعره؟ وأسئلة عديدة بدأت أطلقها في وجوه أصدقائي شعراء البصرة، وبعض القريبين من محمود البريكان، وقتها تكفل الصديق الشاعر علي نوير بمتابعة الأمر، وقد دلني على أخي البريكان، وهو عبدالله البريكان الذي يقيم في المملكة العربية السعودية، وأعطاني صفحته في «فيسبوك»، فدخلت على الخاص، وسلمت عليه، وعرّفته بنفسي، فردَّ التحية باقتضاب، ثم قلت له إنني أريد أن أطبع أعمال البريكان الشعرية، فلم يردّ عليَّ، تركته أياماً، وعُدتُ إليه، فلم يرد عليَّ، ثم عُدتُ إليه ولكن من دون جواب، حتى سمعت بعد اقل من شهر بوفاته، ساعتها علمت صعوبة وضعه الصحي أيام كنت أسأله عن شعر أخيه البريكان. كانت لحظة مخيبة، فقد ضاع الخيط الذي يوصلنا إلى شعر البريكان، ومرت سنتان تقريباً أو أقل بقليل، حتى عاد الصديق علي نوير ليخبرني بأن ابن عم البريكان قاسم البريكان المقيم أيضاً في الرياض، قد تحصل على كل شعر البريكان، حيث سلّمته زوجة عبد الله الأمانة التي كانت مع زوجها. اطمأن قلبي أنَّ شعر البريكان بخير وعافية ما دام موجوداً بأيادٍ أمينة، وبدأنا بجولة مفاوضات مع قاسم الشمري، عن طريق علي نوير للقائه، ولكن مرت أكثر من سنة دون أن نوفّق للقاء، حتى حان موعد برنامج «المعلّقة» الذي كنت أصوّره في مدينة الرياض، وبدأت أتواصل من السيد قاسم الشمري الذي زارني يوم ٥ – ٢ – ٢٠٢٤ في مقر إقامتي في الفندق في الرياض، وكان شخصاً أميناً على تراث ابن عمه، فشكرته باسم المثقفين العراقيين، حيث حافظ على هذا الإرث العظيم، وسلمني لحظتها حقيبة تزن عشرة كيلوغرامات، وإذا بها أشعار محمود البريكان. شعرت بسعادة غامرة تلفني في الرياض، بقيت فيها ثملاً حيث عدت إلى البصرة بعد يومين، مشاركاً في المربد الشعري ومعي أشعار البريكان التي كانت أشبه بالتميمة التي يبحث الناس عنها.

عدت بعد ذلك إلى بغداد، ومباشرة قمت بتشكيل لجنة من أساتذة متخصصين وشعراء قريبين من البريكان نفسه، حيث كانت اللجنة مكوّنة من ماجد السامرائي، وعلي نوير، وطالب عبد العزيز، والدكتورة سهير أبو جلود، وعارف الساعدي. اللجنة اجتمعت أكثر من أربعة اجتماعات، وعملت بحرص ومعاينة شديدة لشعر البريكان، حيث كانت الأشعار التي جلبتها معي كلها بخط يد البريكان، وهناك خطوط وأسطر غير واضحة تماماً، فبدأنا بجولة تنضيد الأشعار، ومن ثم مطابقتها ومراجعتها وتصحيحها، كأن العملية عملية تحقيق نص تراثي لصعوبته، ولكن أخيراً استوى العمل على عوده، وخرج بحلة تليق بشعر البريكان وبمرحلة غيابه وانتظار الكل لشعره.

الغريب أني أهديت نسخة من ديوان البريكان بمجلدين لأحد الشعراء الأصدقاء، وكان يتطلع بحب لقراءة شعره، لكن بعد يومين التقيت صديقاً لي، وإذا به غير متفاعل مع شعر البريكان، قائلاً إن لغته غير شعرية وعوالمه مختلفة عن جيل الرواد، وإن الأفكار التي يطرحها في شعره ممكن أن تُطرح في مقالة فكرية أو فلسفية، وهذا الشاعر الصديق ليس جاهلاً أو قارئاً سطحياً، فكيف تُقنعه بأن للبريكان لغة خاصة مختلفة عن كل الشعراء العراقيين وأن الميوعة والرومانسية واللغة الندّية أبعد ما تكون عن تجربته الشعرية، كما يقول حسن ناظم في كتابه «الشعرية المفقودة» ٢٠٢٠: «من هنا تكون تأملات البريكان في الوجود منطلقاً لتأسيس حرية، حرية خاصة به، تتملص من اشتراطات الأيديولوجيا؛ سائدةً وغير سائدة، ومن شرَك اللحظة الراهنة بكل ثقلها ومعطياتها المهمة للشاعر مع ذلك، وأخيراً من أعباء التراث الشعري؛ قديمه وحديثه، هذا التملص والروغان فرض على أشعار البريكان لغةً خاصة، لغة كان عليه أن يكتشفها ويطوّعها لأغراضه، وأن يجرّب وفاءها بمراميه في قصائد متنوعة ومتعددة، لغة (ليست شعرية) تتوخى كتابة قصيدة حقيقية... إن هذا التفكير في اكتشاف لغة تلائم التأمل الأنطولوجي شعراً هو بمثابة مسار آخر في تجديد الشعر العربي يوازي المسار الذي اختطه السياب ونازك وبلند الحيدري، مسار لم يُكتب له الانتشار ولا كان له تأثير بين الشعراء العرب...». وقد لا يتفق مع هذه الآراء عدد غير قليل من المتذوقين والنقاد، من الذين يبحثون عن اللغة المائية أو الصورة الشعرية الصادمة التي يحفظها الناس ويتناقلونها، ولكن هنا في تجربة البريكان علينا أن نتوقف متأملين هذه التجربة الوجودية التي طوّع لها الشعر، الشعر فقط؛ لتتجلى أسئلة وقلقاً ومراجعة للتاريخ ونصوصه في «الطوفان» و«البدوي الذي لم يرَ وجهه أحد» وبعشرات النصوص الأخرى التي تنبئ عن مرجعية تراثية قلقة تختزن وتستبطن السؤال والحيرة والقلق وليس الإجابة. لذلك فالذين يبحثون عن إجابات مطمئنة لن يجدوا ضالتهم في شعر البريكان، لأن شعره يذهب بك إلى الشوارع التي لا نهاية لها وإلى بيوت لا عناوين لها. من يبحث عن القلق والارتباك سيجده هنا، ومن يبحث عن الراحة والطمأنينة سيجده عند غيره من الشعراء. وهذه كلها وجهات نظر لا نفضّل من خلالها البريكان على شعراء جيله، بقدر ما نصف بعضاً من تجربته الغامضة وغير المقروءة بشكل جيد، لهذا فطباعة أعماله الشعرية، كما قلنا، هي لحظة استحضار جديدة للبريكان عراقياً وعربياً.

هناك عشرات المباحث والموضوعات التي يحتملها شعر البريكان والتي لم تأخذ طريقها للدرس والبحث العلمي، ففي النية عقد مؤتمر يتم بالشراكة بين اتحاد الأدباء والكتاب في العراق وبين جامعة البصرة، يتضمن بحوثاً وشهادات عن البريكان وتجربته الشعرية، فضلاً عن حفل إشهار لإطلاق الأعمال الشعرية في موطن ولادته البصرة، لنحتفل به من جديد بين أهله ومحبيه وعشاق شعره، وهي لحظة لاستعادة تجربة مهمة من تجارب الشعر العربي الحديث.